من ذكريات لبنان

كيف كنت غيرى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كنا نقصف — ذات ليلة — فى فندق كبير فى « ضهور الشوير » . والقصف أن نشرب ونضحك ونأكل — بعيوننا — الفتيات المشوقات اللواتى يخطرن فى المرقص مع السعداء من الشبان ، وكانت الأنوار فى المرقص ألواناً شتى متعاقبة ، وكان الضوء الأرجوانى — حين ينساب الفتيات فيما يترقرق عليهن منه — أقوى فتنة وأشد إغراء ، فكنا ننهض عن المائدة ونتزاحم على أبواب المرقص ، وعيوننا تكاد تخرج من فرط التحديق ، وكانت هناك فتاتان تتراقصان وتأبيان أن يخاصرها الرجال ، وكانتا ساحرتين — فى جمالها ، ودلها ، ولعبهما ، وحركاتهما . فأغريت بهما أحد رفاق — وكان يجيد الرقص — وأنا أقول لنفسى : « اذا راقص إحداها عرفناها جميعاً وفزنا بصحبتهما » ولكنهما ردتاه ببسمة وكلمة رقيقة لاتغنى ولا تسمن

فقلت لنفسى : « لم يبق لها إلا رجالها » ودنوت منهما وقلت وأنا أتناول كرسياً وأجلس بغير استئذان :

« أمِنْ قلةٍ فى الرجال تتراقصان ؟ »

فقالت إحداها — بعد أن ألقت الى صاحبتها نظرة :

« بل من كثرتهم ! »

فقوّى قلبى أنها ردت ، فقلت : « اسمعا منى . إن هذه النظرات الخبيثة التى تتبادلانها لن تجديكما ..(ضحك) وأنا باسم هؤلاء الشبان الكثيرين الذين لا أعرف أسماءهم ولا أحب أن أعرفها .... »

فسألت احداها : « لماذا ؟ »

فقلت : « لاتقاطعى من فضلك ! ثم إن هذا شأنى وحدى ، وعلى ذكر ذلك أسألك ... هل أنت مصرية مثلى ؟ »

فقالت الخبيثة — أعنى التى تتكلم — : « هل أنت مصرى ؟ »

فصحت بها : « يخرب عقلك ! وهل ترين أنى أتكلم إلا كما يتكلم المصرى ؟ »

فضحكتا وقالت الأخرى : « هذا أحسن . لقد كنت أسأل نفسى أين يا ترى رأيتك ؟ »

فقاطعتها : « نعم إنى أراك دائماً ...... »

فسألتنى جادة : « أين ؟ »

فقلت : « بخيالى ... فى أحلامى ! »

فقالت الأولى وهى تبتسم — لا أدرى لماذا — ألست عبد .... عبد الله ؟ »

فتنهدت وقلت : « طبعاً ، طبعاً ، عبد الله حقاً وصدقاً »

قالت : « لقد كنت واثقة أنى أعرف وجهك .... ألم تعرفيه يا توحة ؟ »

فأجبتها أنا : « لماذا تحرجينها ؟ دعى لها سرها حتى تهمس به فى أذنى ، ونحن نتمشى فى غابة بولونيا ، والقمر الطالع .....»

فضحكتا وقالت توحة : « بهذه السرعة ؟ »

فقلت : « معذرة ! إن خيالى وثاب .... طيار اذا شئت ، ولكنه صادق .... لايطير إلا بجناحين من الحقيقة »

فقالت الأولى : « وكيف زوجتك ؟ »

فصحت : « إيه ؟ »

ولم أكن أتوقع أن ترميني بسؤال عن زوجتى ، وخفت أن يكون وراء السؤال شرك منصوب ، فلذت بالحذر . وقالت :

« إنما سألت كيف زوجتك ؟ »

فقلت : « زوجتى ؟؟ أوه ! آه ! مفهوم ! »

قالت : « لماذا تركتها ؟ »

فلم أدر ماذا تعني بالترك ؟ وآثرت أن أروغ فقلت :

« هل تعرفينها ؟ »

فقالت الخبيثة : « إنه يسأل هل أعرفها ؟ قولى له ياتوحة»

فدار رأسى ، وارتبكت ، فما رأيتهما قط فى بيتنا ولا فى بيوت أحد من أهلنا أو معارفنا ، وزاد شعورى بالشراك المنصوبة تحت كل كلمة ، ولعنت الساعة التى أقدمت فيها على كلامهما ، ولكنى كنت قد تورطت ، وانتهى الأمر ، ولم تبق لى حيلة ، وخجلت أن أنهزم أمامهما فتشددت وقلت :

« ما أجمل هذه المصادفة ! بالله حدثاني عن نفسيكما . . . . إن أذنيّ معكما . . . . لكل واحدة منكما أذن . . . تكلما . . بارك الله فيكما ، وفي ليلتي هذه معكما ! »

فقالت الخبيثة : « ماذا جرى بينكما ... إلا أن يكون هذا سراً لا تحب الأفضاء به »

فقلت : « لا لا لا ... وعلى أنه لم يجر بيننا إلا ما يجري بين الزوجين ... أعني عادة ! »

فقالت توحة وهي تضحك : « إن الذي تعنيه أختي ... »

فسألتها « أختك ؟ »

فقالت « نعم أختي ... من كنت تظنها ؟ »

فقلت « كنت أظنها ... إ... أ ... أختك »

فأضحكهما هـذا التخليط ، وضحكت معهما . ولما قرّت الضجة قلت :

والآن يا أختها بأي اسم تخاطبين نفسيـــك حين تنظرين في المرآة ؟

فقالت : « أتريد أن تعرف اسمي ؟ »

فأردت أن أستفزها فقلت : « لا (بفتور) يكفي أن أعلم أنك أخت توحة »

ولكنها كانت أخبث مما توهمت ، فقالت :

« نعم كفاية . والآن ألا تحدثنا عن سبب انفصالك عن زوجتك ؟ إنها صديقتنا من أيام المدرسة ، وقد آلمنا ما وقع ، ولكن لعل لك عذراً »

فحمدت الله في سري على جهلها بي وبزوجتي ، وأيقنت أني آمن معهما ، ولكني مع ذلك حاولت أن أزحزح الحديث عن هذا الموضوع فقلت :

« هذا شيء مضى ، ومن العبث الكلام فيه »

فقالت أخت توحة : « مسكينة ! »

وقالت توحة : « ما أفظع الرجال ! يأكلون المرأة لحما ، ويرمونها عظما »

وألفيت نفسي غرضاً لسخطهما ونقمتهما ، فضاق صدري وقلت :

إني لم أكن أحب أن أقول شيئاً ، ولكن الرجل لا يستطيع أن يظل يحتمل طول عمره أن يرمى بصحاف الطعام الملآى

فصاحت توحة : « إيه ؟ ماذا تقول ؟ »

وأعجبني صوتي ، وسرني أني تبينت آية الدهشة في وجهيهما فمضيت أقول :

لقد كانت تتناول قطتي البيضاء وتلعب بها الكرة ، أو تمسكها من ذيلها وتطوح بها ذراعها ، وتزعم أن هذا خير من اتخاذ الحديد للعب »

فقالت أخت توحة : « مستحيل ! لا أصدق »

وقالت توحة : « زينب تفعل ذلك ؟ ! ؟ »

فقلت : « المسألة بسيطة والبرهان حاضر ، تعاليا معي الى مصر وأنا أريكما القطة ! »

وآلمني أن أمزق (زينب) هذه بالغيب ، وأدركني عليها عطف شديد ، ولكن ماذا أصنع وقد أبت الفتـــانان الا أن تحشراها في الحديث حشرا ، والا أن تركباها كتفي ، وتزعماها زوجة لي ، وتدعيا أني أسأت اليها وجنيت عليها وتخليت عنها ؟

وقالت توحة : « ولكن كيف يمكن ؟ لقد كانت في المدرسة أرق التلميذات قلباً ؟ »

فهززت رأسي وقلت : « وأشهد أنها ظلت كذلك زمناً حتى اعتادت الشراب »

فصاحتا بصوت واحد : « الشراب ؟ زينب ؟ »

قلت : نعم ، مع الأسف ! وبعد ذلك انقلبت زوبعة لا تسكن قط ... بالله اتركا هذا الحديث ... إنه يؤلمني ... وما أفضيت اليكما بهذه الحقائق إلا لأنكما كنتما معها في المدرسة ، فاعذراني وانتقلا إلى كلام آخر »

* * *

وصرنا أصدقاء ، نلتقي كل بضعة أيام ، أعني أني كنت أزورهما من حين إلى حين في مصيفهما « بضهور الشوير » ، ونخرج الى البساتين والضياع المجاورة ، ثم مضت فترة لم أرهما فيها ، واتفق يوماً أني كنت مدعواً الى حفلة في فندق بيروت ، فبصرت بأخت توحة واقفة تطل على البحر ، فوقفت الى جانبها وحييت ، فردت التحية بفتور فقلت :

« الجو حار »

قالت: « نعم »

قلت: « ولكن البحر يلطف الحرارة »

قالت: « نعم »

ولم يخطر لي كلام جديد فقلت:

« كبرٌ ما بنا أم جفوة ؟ »

فواجهتني وسألتني بحدة:

« ألا تزال اسمك عبد الله ؟ »

قلت: « يا فتاتي لا تجهلي! ما زلت عبد الله حقاً وصدقاً، وإن كنت مع هذا لا أنكر أنه غير الاسم الذي اختاره لي أبواي »

قالت: « ألا تخجل ؟ »

قلت: « إني أستحق عطفك.. لقد احتملت هذا الاسم الذي لا يبعث على الزهو، لأنك أنت اخترته لي »

قالت: « لقد رأيت زينب ... وأخبرك أيضاً أنها مع زوجها، وأنهما يقضيان الصيف في لبنان. لماذا قلت عنها ما قلت ؟ »

قلت: « أي زينب ؟ »

قالت: « لا تكابر! إنها لا تعرفك ولم ترك قط في حياتها »

قلت: « ما أضعف ذاكرة النساء! »

قالت: « إن عذرك الوحيد — في نظري — أنك مجنون. وكلما تذكرت ما قلته عن زينب وما أضعته سدى من العطف عليك ... »

فقاطعتها: « كلا. لم يضع ... لقد زادني هذا حباً لك وتعلقاً بك ... »

قالت: « ألا تزال تجرؤ على مثل هذا الكلام ؟ »

قلت: « أو يحتاج ذكر الحقيقة والإقرار بها إلى جرأة ؟ »

قالت: « وتتصور أني أصدقك أو أصدق أنك تتكلم جاداً ؟ »

قلت: « كلا. إن هذا لا يجري لي في بال. إنما أنا منتظر.. ويمكنك أن تعدي كلامي صورة طبق الأصل من حديث أحلامك ونجوى أمانيك ... وسيأتي يوم تظلم فيه الدنيا أمام عينيك، وتحسين أنه ما من أحد يحبك في هذه الحياة — كلنا يمر به يوم كهذا — فإذا جاء — أعني ذلك اليوم — فقولي لنفسك.. كلا. إني مخطئة. فإن في الدنيا قلباً يخفق بحبي، يحبني مخلصاً ... »

فقالت: « إنك مجنون ولا شك »

قلت: « وفي أثناء ذلك ترين شخصيتي الجميلة الجذابة تتفتح تحت عينيك كما تتفتح غلائل الزهرة تحت أشعة الشمس .. »

قالت: « لن أصغي لك »

قلت: « إذن احضري معي هذه الحفلة، وكوني فيها ملاكي الحارس »

فصاحت بي: « لن أغفر لك هذا »

فقلت: « إني لست عبد الله! ولكني عبده والله! »

فابتسمت، فقلت: « هذا أحسن وأين توحة ؟ »

قالت: « لو كانت هنا لما نجوت بهذه السهولة »

قلت: « الحمد لله — أعني على النجاة لا على غيابها. اذهبي بي إليها »

قالت: « والحفلة ؟ »

قلت: « تستطيع أن تنتظر — أعني الحفلة — فإن مرضاتها — أعني توحة لا الحفلة — أولى وأندى على كبدي. »

وكان هذا هو السر الذي لم يعرفه المحتفلون، في أن حفلتهم تأخرت نصف ساعة. فليت حظي من كل حفلة نصف ساعة كهذه!

إبراهيم عبد القادر المازني

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

صحائف من العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرتين، وجذوة من شعوره، ولحن من شعره. طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أي مكتبة